



18 يناير 2020
بقلم: صادق أمين

سُئِلَ ابنُ المبارك - رحمه الله - عن رأس التواضع، فأجاب: "رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا، حتى تُعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عن من هو فوقك في الدنيا، حتى تُعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل".

نعم.. وضع النفس في مكانها هو التواضع، فحين لا ترى نفسك فوق الناس بمال أو جاه فأنت متواضع، وحين لا ترى نفسك دون الآخرين بفقر أو هيئة أو مسكن.. فأنت متواضع.

فليست الدنيا مجالاً يتناول فيه الخلق، يرتفع فيها من ملك، وينزوي فيها من فقد.. الأمر في غير ذلك، والشأن ليس عندها، والميدان ليس ميدانها، فمن تناول بمال ورثه، أو ثروة جمعها، أو حسب أو جمال أو جاه.. فقد خسر وخاب؛ ذلك أن الدنيا ليست ميدان تفاخر وتناول، فكن فوق من تناول في دنياه، فهذا عين التواضع ورأسه، وكن دون من سبقته بمتاع الدنيا، تكن متواضعاً.

فالتواضع أن لا تتناول، وترى أنك خير من الآخرين بمتاع أصبته، أو جاه يلبته، أو مال ملكته.. فتأنف أن تؤاكل من هم دونك، أو تجالس من هم دونك.. بل مؤاكلتهم وزيارتهم ومجالستهم ودعوتهم هي عين التواضع.. فليس التواضع أن تعطف عليهم، وتُشعرهم بضعفهم وفقرهم، وأنت صاحب فضل عليهم، بل التواضع أن تشعرهم بفضل الله عليك وعليهم، وتعزّر ثقتهم بأنفسهم، وتكبر إنسانيتهم، وتحترم آدميتهم، وترفع- إن حضروا مجلسك- شأنهم..

فلا يجوز لمن أقبلت عليه الدنيا إلا أن يضع نفسه، ولا يجوز لمن أدبرت عنه الدنيا إلا أن يرفع نفسه، عن امتنانها والتقليل من أمرها؛ بسبب ما هو فيه من فقر وحاجة، فلا يرى في نفسه الأهلية أن يتكلم بحضرة من سبق في ركاب الدنيا، فحاز متاعها، أو أبحر مركبه في خضمها.. حتى وإن كان ذا علم ومعرفة.. فسكوته هنا ليس تواضعاً، ولا أصل له في باب المروءات..

والتواضع صنو الحق ورفيقه، ولا تواضع في غير ميدانه، قبولاً ورضاً، وخضوعاً وطلباً.. سئل الفضيل بن عياض- رحمه الله- عن التواضع.. ما هو؟ فقال: أن تخضع للحق، وتنقاد له، ولو سمعته من صبي قبلته، ولو سمعته من أجهل الناس قبلته.

والتواضع هنا رفعة هناك.. ذكر جرير بن عبد الله أنه انتهى ذات مرة إلى رجل نائم تحت شجرة، قد استظل بنطع له، وقد جاوزت الشمس النطع، فسوّاه له، فاستيقظ الرجل، فإذا هو سلمان الفارسي - رضي الله عنه - يقول جرير: فأخبرته بصنيعي، فقال له سلمان: يا جرير، تواضع لله في الدنيا، فإنه من تواضع في الدنيا رفعه الله يوم القيامة، يا جرير، أندري ما ظلمة النار يوم القيامة؟ قلت: لا.. قال: إنه ظلم الناس بعضهم بعضاً في الدنيا.

فالتكبر ظلم رهيب، وعيب خطير، وثلمة في الدين، تزداد به ظلمة النار، وهل يحل الظالمون مكافئاً إلا وازداد طلاقاً وسواداً بسبب ظلمهم، وسوء فعلتهم؟! حتى إن الدنيا تزداد ظلمتها، وتعظم مصيبتها، وتشتد قسوتها، حين يحكم الناس الظالمون، ويسودهم الظلمة..

ولا يكون التواضع إلا مع القدرة؛ قيل لعبد الملك بن مروان: أي الرجال أفضل؟ قال: من تواضع عن قدرة، وزهد عن رغبة، وترك النصره عن قوة.. ودخل ابن السماك على هارون الرشيد- رحمهما الله- فقال: يا أمير المؤمنين، إن تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك، فقال: ما أحسن ما قلت! فقال: يا أمير المؤمنين، إن امرءاً آناه الله جمالاً في خلقته، وموضئاً في حسبه، وبسط له في ذات يده، فعفّ في جماله، وواسى من ماله، وتواضع في حسبه، كُتِبَ في ديوان الله من خالص أولياء الله، فدعا هارون بدواة وقرطاس وكتبه بيده.